

سردية الوباء في الكتابة الرحلية المعاصرة: قراءة في كتاب "رحلة تندوف في زمن كورونا"
لعبد القادر مسكي / حليلة قاجوج، كمال بولعسل

سردية الوباء في الكتابة الرحلية المعاصرة
قراءة في كتاب "رحلة تندوف في زمن كورونا" لعبد القادر مسكي

The narrative of the epidemic in contemporary travel writing, read in the book "Tindouf's journey in the time of Corona" by Abdelkader meski

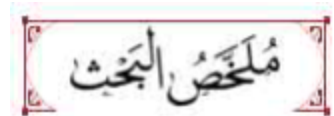
حليلة قاجوج

جامعة جيجل، (الجزائر)، halima.kadjoudj@univ-jijel.dz

كمال بولعسل

جامعة جيجل، (الجزائر)، kamel.boulassel@yahoo.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	
2024 / 03 / 01	2024 / 01 / 25	2023 / 10 / 25



تروم هذه الورقة البحثية رصد سردية الوباء في كتاب "رحلة تندوف في زمن كورونا" لعبد القادر مسكي، عبر تتبع الأنساق النصية المسؤولة عن تصوير أثر الوباء على المجتمع الجزائري، بداية بأصحاب الأمن وصولاً إلى مواطني الجنوب، دون أن تغفل تأثير ذلك كله على جماليات الوصف والتعليق التي يتميز بها كل خطاب رحلي؛ ذلك لأنه مرآة اجتماعية عاكسة لكل ما يطرأ في فترة زمنية معينة، وناقل بيوغرافي لصفات الأنا وتعاملاتها ومخاوفها، إذ يعد إضافة إلى ما سبق وثيقة أنثربولوجية رسمية لما جرى في التاريخ وما يجري من أحداث طارئة ومستجدة، وفن أدبي تصويري يطمح إلى ترسيخ تاريخي متكامل الدلالة والمواقف.

الكلمات المفتاحية: السرد، وباء كورونا، سردية الوباء، أدب الرحلة، وثيقة أنثربولوجية.

Abstract

This research paper aims to monitor the narrative of the pandemic in the book "The Tindouf Journey in the Time of Corona" by Abdelkader Meski, by tracing the textual formats responsible for portraying the impact of the pandemic on Algerian society, because travel literature is a reflective social mirror, an official anthropological document of what happened in history and the emergency and new events taking place, and a pictorial literary art that aspires to an integrated historical consolidation.

Keywords: narrative, Corona epidemic, pandemic narrative, travel literature, anthropological document.

1. مقدمة:

لقد تعددت وتشابهت الأبحاث النقدية المهمة بتعريف أدب الرحلة وتجميع خصائصه وتبيين حدوده، دون أن تتخطى عتبة الإشكالات النقدية المتعلقة بصعوبة تصنيف هذا النوع من الخطابات المائعة؛ لأنّ «وجود أدب الرحلة كملتقى الأجناس الأدبية والمعارف والعلوم كان حائلا تعثرت به نوايا تحديد وتجسيد أطره كشكل أدبي، حيث نجده يتسع بمعطياته المختلفة لينتمي إلى دوائر معرفية متعددة كالتاريخ والسير والتراجم ... إلخ، مما يقلل من أدبيته بالقياس إلى أشكال الأدب الأخرى التي استطاعت أن تجد لها مكانا تحت شمس الأدب والنقد»¹، ولعل هذا الإشكال هو ما تسبب في تلاشي قدرته على الصمود كفن أدبي، يجاور ويحاذي الرواية والقصة في ظهورهما الباذخ والطاغي على الساحة الأدبية والنقدية في الوقت الراهن.

أمام هذه الصعوبات المحيطة بمصطلح "أدب الرحلة" ومواضيعه المائعة، يسعى هذا الجنس الأدبي دائما إلى تصوير العالم في ديناميته المتحركة، إذ يحاول كاتب الرحلة الإحاطة بمعالم الفضاء المتواجد فيه، بوصف معالمه وإبراز ما يتميز به من عادات وتقاليد، دون أن يغفل نقل مشاعر الآخرين وآرائهم حول المعالم السياحية، فيزداد علما بتلك المناطق، ويحسن بثها للقارئ، مع التركيز على وصف الحالات الاجتماعية والسياسية التي قد تصيب فئة أو طبقة اجتماعية في زمن معين، كالذي صوره كاتب "رحلة تندوف في زمن كورونا"، حيث سلط الضوء على أبرز ظاهرة أثارت العالم في السنوات الأخيرة، هي جائحة الوباء المتفشي في معظم دول العالم، فأحسن إلى حدٍ ما نقل معاناة الإنسان في سفره وتعاملاته مع الآخر.

وذلك انطلاقا من فرضية أنّ النصوص الرحلية ذات بنيات متكاملة «يؤرخ فيها المرتحل للفترة التاريخية التي استغرقتها رحلته فضلا عن الأحداث التي عاصرها من منظور يعتمد المعاينة والقراءة والتأويل والسماع... فتتحول الرحلات في بعض مقاطعها إلى تاريخ خاص، وحوليات يتم فيها تبثير عين الرحالة، المنطلقة من ذاته وأفكاره وتصورات واستيهاماته. فيتحول التاريخي إلى مشاهدات تلتقط ما يعزز الرحلة ويعطيها الطابع الذي يتوخى السارد إيصاله إلى القارئ»²، بموضوعية لا تخلو من بعض النزعات الفردية التي لا يمكن التحكم في بعضها، لأنّ الرحلة في الأخير نص مدوّت، ومشهد سيري ذاتي وبيوغرافي «يخص لحظة

زمنية مؤطرة بسفر "ذات" تحمل أحلامها وتطلعاتها ومعارفها وقيمها³، وتسعى إلى معرفة اختلافها بالتعامل مع الآخر، الذي يظهر كبنية متكاملة بين تضاعيف السرد والوصف والتعليقات.

وتزامنا مع هذا التقديم، تهدف هذه الورقة البحثية إلى اكتشاف جماليات الكتابة الرحلية المعاصرة، وكيفية استجابتها للمتغيرات التي طرأت على العالم بأكمله في زمن الجائحة، وتأثير ذلك كله على نفسية الرحالة، الذي يحاول تجاوز كل العراقيل من أجل وصف المعالم السياحية، دون أن يتخطى قوانين الحجر الصحي؛ المتمثلة في اجتناب الاختلاط، ومنع التجول، والحظر الشامل لكل وسائل النقل، همه الوحيد نقل ما شاهدته العين طيلة مسار رحلتها ذهابا وإيابا، وتدوين ما تمت معاينته أثناء الاحتكاك بالآخر، لأن مهمة الرحالة في هذا المقام، تكمن في تجسيد خطورة الوباء، وتوعية المجتمع ودعوته إلى أخذ الحيطة والحذر أثناء السفر وبعده، فإلى أي مدى استطاع الرحالة التجاوب مع تلك القوانين، والتماشي معها لضمان رحلة سليمة في زمن استثنائي؟ وهل وفق إلى تشكيل سردية خاصة بالوباء، تصف خطورته وتحذر من انتشاره؟

2. الكتابة الرحلية المعاصرة: سؤال الهوية وإشكالية التجنيس:

دائما ما يقف الباحث في "أدب الرحلة" موقف الحائر أمام الإشكالات العديدة التي يطرحها هذا النوع من الخطاب، والتي تجمع بين سؤال الهوية من جهة، وإمكانات التصنيف المتاحة من جهة ثانية، نظرا لانفتاحه الدائم على علوم مختلفة؛ فهو يشبه -مجازا- فناء بيت يفتح على أبواب ومداخل متعددة: التصوف، التراجم، السيرة الذاتية.. تجعله يختار مسارا علميا بحثا، إذ نجده مندسا في كتب الجغرافيا والأنثروبولوجيا، وحتى السياسة والتاريخ، على شكل وثائق توصيفية دقيقة للأماكن والأفضية، وسجلات أثنوجرافية لحياة الإنسان المتقلبة وثقافته المختلفة في عديد المحطات الزمنية، هذا لأن الرحلة نص مفتوح «لا يمكنه أن يتسجج في خانة محددة تجسده بصفة معينة تضيق من تحرره واتساعه وانتشاره و"هجومه الضروري" على حقول أخرى. لهذا، فإن القول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحلة، وعلى خطاباتها المستندة على طرفي "الذات والآخر"، وجسور التعبيرات المختلفة عنهما وحولهما»⁴، ولعل ما يميز هذا الخطاب اعتماده على أساليب تعبيرية تدرج ضمن الحياكة الأدبية؛ إذا ما تمّ التركيز على اللغة المستعملة أثناء الوصف والتعليق، لكن دون أن يتعدى الأمر التركيز على الصبغة الأدبية والجمالية التي يتميز بها، باعتباره فنا أدبيا له مكانته ضمن الأجناس الأدبية القديمة والحديثة.

ونظرا لهذا الوضع فقد لقي أدب الرحلة عزوفا نقديا في العصر الحديث نظرا لانطلاق معظمهم من فكرة أيديولوجية، ترى أن هذا النوع من الإبداع فن قديم، يجب تجاوزه، شأن كل النماذج القديمة، كونه لا يعبر عن روح العصر الحديث، خاصة مع تسهيل مهمة التنقل، وتصوير العالم مباشرة بواسطة أحدث التقنيات العلمية، وإيصال ذلك إلى المشاهد في أسرع وقت وأيسر طريقة، الأمر الذي حدّ من الفاعلية

النقدية، إذ بقي أدب الرحلة ذا منظور تراثي قديم، ومعظم الدراسات التي دارت حوله طغى عليها البحث التاريخي على حساب البحث النقدي الأكاديمي، لكن هذا لا يعني وجود تيار فكري مضاد حاول إعادة الحياة إلى أدب الرحلة، باعتباره جنسا عربيا بامتياز؛ وذلك من أجل إثبات الكفاءات السردية العربية ومدى قدرتها على التأقلم مع أجناس أدبية متاخمة تجمع بين السردى والوصفي والبعد العجائبي في سياق أدبي واحد.

وقد عمدت تلك الخطابات النقدية إلى محاولة تجنيس أدب الرحلة ونسبه إلى عالم السرد، مما أفرز العديد من التساؤلات حول هجنة هذا النوع من الكتابة، خاصة بعد اتخاذ أشكال جديدة، نتيجة تعالقه الواضح مع الخطاب الروائي المعاصر، إذ تظهر في أشكال عديدة تجمع بين الرحلة الحقيقية متعددة الدوافع، والرحلة التخيلية التي تقوم بها الشخصية البطل داخل العمل الروائي، لأن الرحلة عادة «ما تحفل بالمقومات الأسس للقصة من فكرة رئيسة وبناء، وحبكة، وبيئة زمانية ومكانية، وشخصيات، وبطل للقصة، علاوة على اللغة والأسلوب»⁵؛ الأمر الذي حدا بشوقي ضيف إلى الرد على المتزعمين بحداثة القصة والرواية واعتبارهما دخيلين على الآداب العربية الحديثة، إذ يرى أن الرحلات «من أهم فنون الأدب العربي، لسبب بسيط، وهو أنها خير رد على التهمة التي طالما أثَّمت بها هذا الأدب، ونقص تهمة قصوره في فن القصة. ومن غير شك أن من يهتمونه هذه التهمة لم يقرأوا ما تقدّمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر ودجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر القولجا وعبد النار والإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حيناً، ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حيناً آخر»⁶؛ إذ يعدّ وجود هذا النوع من الكتابة في وقت متقدّم جداً، خير دليل على وعي الذات العربية القديمة بالكتابة القصصية وما يشبهها من خطابات؛ تندرج - حسب المفهوم المعاصر - في خانة التجريب الحدائي الذي طال معظم الفنون السردية القديمة والحديثة.

3. ملامح الأنثروبولوجية الاجتماعية في الكتابة الرحلية المعاصرة:

جُبل الإنسان منذ نشأته على حب الاستطلاع واكتشاف المجهول من المخلوقات والمعالم، فكان يضرب في الأرض، باحثاً عن الحقيقة في الآخر المختلف عنه ديناً وثقافة ولغة، فيشد الرحال إلى المدن التي أثار وصفها مسامعه ووجدانه لملامسة آثارها عن قرب، ومن ثمّ كتابة تقريره حولها، والذي كثيراً ما يكون منمقا يغري المشاهد أو القارئ ويدعوه إلى زيارة تلك المدينة ومعرفة ثقافة سكانها. فيشبع بذلك رغبة جامحة في اكتشاف المجهول، لأن الرحلة في هذا المقام تصدر عن «رغبة في الطواف نفسه والسفر لذاته وحب التنقل وتغيير الأجواء والمناظر وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة، ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة والبشر، واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع، وقد تكون لتعرف المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج أو الكهوف والغرائب والعجائب»⁷، وبهذا يحتل أدب الرحلة الصدارة بين كل النماذج المؤهلة للدراسات الأنثروبولوجية الحديثة، وذلك لإلمامه الواضح بتفاصيل الذاكرة أثناء سيرها إلى المجهول في الزمان والمكان.

وفي ظل التجوال السياحي يحاول الرحالة تدوين ما التقطته عيناه وأذناه من أخبار ومشاهد، تسهم في تسجيل تاريخ البلدان وما جرى فيها من متغيرات سياسية واجتماعية؛ فأدب الرحلة وثيقة تاريخية تنقل أخبار العالم وقضاياها الراهنة عبر مراحل تاريخية متتالية، تجمع بين الاستدكار والاستشراق، وهذا ما سار عليه كاتب "رحلة تندوف في زمن كورونا"، إذ حاول تجميع مختلف القضايا التي غيرت مجريات الأحداث، وأسهمت في خلخلة النظام العالمي، نتمثل ذلك في مقدمة كتابه التي عرض خلالها إلى ذكر وباء كورونا والاحتياطات الجبرية التي وضعها العالم لتفادي انتشاره: «في مطلع سنة ألفين وعشرين ظهر بالعالم وباء غريب خطير، وباء حصده ملايين البشر فاضطرت دول العالم إلى فرض الحجر الصحي تدرجا حسب كل منطقة، ولكن الوباء شديد ونسبة الوفيات فيه تتزايد دون تحديد، وأغلقت المساجد والمطارات وأوقفت جميع الرحلات، واشتدت الأزمات فأغلقت المدارس والجامعات»⁸، وهذا الاقتباس يدعم فكرة التعالق الاجتماعي بين الرحالة وبينته، إذ ينقل أخبارهما بشيء من الانفعال والدهشة، هذه الأخيرة ترجع في تشكيلها إلى أسباب عدة، يمكن إدراجها في النقاط التالية:

- الانفصام الذي يشهده الرحالة خلال تماهيه مع الآخر بين نظرتة القبلية «مقابل ثقافة ما بعد الرحلة حيث تصطدم الانطباعات والمعارف القبلية المسبقة مع المشاهدات التي كونت إدراكا جديدا»⁹، فيه من الدهشة والإعجاب ما يتجلى واضحا في نقل العادات والتقاليد بلغة جمالية مثيرة، تدفع بالرحالة إلى بلورة وخلخلة المسبقات أو تفعيلها في إطار تحديد وضعية الأنا وعلاقتها بالآخر.

- تتولد الدهشة كذلك جرّاء المشاهدة العينية لمختلف المعالم السياحية ضمن منطقة بعينها، يقصدها الرحالة ليكتشف جمالها وحيثياتها وتاريخها الصامد صمود الآثار المحيلة إلى وجود حضارة إنسانية قديمة، كان لها شأن عظيم في تاريخ الحضارات السابقة، كالأحياء العتيقة التي نالت إعجاب الرحالة خلال سفره إلى ولاية تندوف الجزائرية، فأخذ يصفها وصفا جماليا، مركزا على ذكر أهم المناطق المعروفة في الجنوب الغربي للدولة الجزائرية: «لقد كانت الجولة بالحي العتيق مهمة بالنسبة لي لأنها تشكل منعطفًا تاريخيًا في التعرف على معالم تندوف، كما أن هذا المعلم يستحق العناية في ظل الإهمال الذي طرأ عليه من الداخل»¹⁰، دون أن يفوت الكاتب على نفسه، فرصة أخذ صور تذكارية، تمنحه بعضا من الحنين لتلك المناطق، حين يشد الرحال قافلا إلى دياره بوهران.

- وقد يفرز الانتقال المؤقت ضمن محطات عبور متدرجة إلى المنطقة الهدف، نوعا من الدهشة واليأس، وذلك بسبب العراقيل الموجودة طيلة مسار الرحلة، بداية من توقيف عربات المرور،

وصولاً إلى المراقبة المستمرة والمستفزة للمسافرين، عبوراً بمشاعر الخوف من الإصابة بالعدوى، وما ينجر عنها من حبس مؤقت لجميع الركاب: «أسامة الذي رافقني مسار الرحلة من بشار إلى تندوف أخبرني أن الحاجز يمثل منعرجاً حاسماً جداً، فقد يتم حجزنا جميعاً في المصح إذا ثبت وجود حالة كورونا واحدة في الحافلة»¹¹، وقد أطنب كاتب الرحلة -وذلك ديدنه- في وصف مشاعره الممتزجة بين الدهشة والترقب طيلة مسار رحلته التي وصفها بالمغامرة الخطيرة؛ وذلك لتحديّ جميع الظروف والعراقيل واتخاذها جسراً للوصول إلى هدفه والعودة منه سالماً من المرض رغم تخوفه الدائم من انتقال العدوى.

وتعد هذه الرحلة خطوة جريئة في تاريخ الكتابة الرحلية، لتجسيدها مخاوف الإنسان في أزمنة المرض، فأحسن تصوير الأثر النفسي في دواخل الإنسان الجزائري، بما في ذلك رجال الأمن والمسافرين، واستطاعت تفعيل بث مباشر لمختلف التحركات والتجمعات السكانية، والاطلاع على سبل مقاومتها الفعالة للوباء، لأنّ الرحلة أو أدب الرحلة مرآة اجتماعية عاكسة لكل الأخبار الراهنة في فترة زمنية معينة، فهي الناقل لصفات الآخر وتعاملاته ومخاوفه، إذ تعد إضافة إلى ما سبق وثيقة أنثربولوجية رسمية لما جرى في التاريخ وما يجري من أحداث طارئة ومستجدة.

4. الكتابة الرحلية في زمن الوباء:

يعد كتاب "رحلة تندوف في زمن كورونا"، من أبرز الكتب الرحلية التي أمعن مؤلفها في وصف أثر الوباء ونتائجه المؤلمة على الشعب الجزائري وعليه بالدرجة الأولى، حيث تلقى مصاعب عديدة منذ بداية رحلته التي تشكلت عبر مراحل تدرجية، فضحت لها بدايةً نيته في ترك بلاده نحو المكان المقصود بزيارته، وهو ولاية تندوف في الغرب الجزائري، يعقبها مشهد جمع العتاد اللازم للسفر، وتوديع الأهل والرفاق، ثم المسير، الذي يتضمن وجهين للسفر، ذهاباً وإياباً، مع اختلاف يميزهما: «فالأول يكون مُسهياً وتفصيلياً، والثاني مختصراً وسريعاً، درءاً لأي تكرار (...) ويشكل مشهد المسير بؤرة النص الرحلي، ونسيج الحكى وجامعُهُ، لأن السارد يصف ويروي انطلاقاً من عين متحركة تسير من نقطة إلى أخرى، من المعلوم إلى المجهول. وعادة ما يتضمن هذا المشهد معظم أحداث الرحلة، بما فيها من معاناة الرحيل والمشاهدات، والمروي عن طريق السماع والحوار»¹²، فهو عنصر مهيم ضمن حركية متفاعلة بين الرحالة وما يجري له من أحداث، قد تصب في صالح الغاية المنشودة، وقد تلعب دور المعرقل الذي يمنعه من الوصول إلى بغيته في الوقت المحدد، مثلما جرى لصاحب الكتاب، نظراً للظروف الاستثنائية التي أعقبت الرحلة منذ انطلاقتهما، كتوقف وسائل النقل الجامعة بين الولايات الشمالية والجنوبية عن الحركة، وإعلان حالة إخلاء تام للشوارع والممرات، ومنع التجوال في وقت معين من النهار، هذا كله وقف عائقاً في وجه الرحالة المغامر، الذي وُسم بالمجنون، لأنه اختار الخروج والتحدي على حساب صحته وسلامته من معه.

تعقب تلك الحركية المتفاعلة سردية أخرى، حينما يشرف الرحالة على الوصول إلى المكان الهدف، فيغير من طريقة تبليغه، حيث يحرص على وصف الأماكن والأشياء التي تكبد عناء السفر من أجل بلوغها ورؤيتها عن كثب، ويكون في ذلك نوع من التكتيف السردى المشبع بآفاق أخرى، إذ يقوم على «التشخيص الدقيق، سواء تعلق الأمر بما هو روحي -ديني، أو تقريرى وتبليغى وسفارى، أو علمى وأدبى وغيره. ففي هذا المستوى يصبح السرد متوازيا ومتضمنا أشكال الوصف والتعليق والتأمل والمقارنة والتمثل»¹³، فالنصوص الرحلية ذات الوجود الفيزيقي تستند إلى مرجعية ملموسة في زمنية الكون وأماكنه، وهي عبارة عن أحداث حقيقية مصبوعة بخصائص مشتركة، بالإضافة إلى أنها تفرز أنواعا مختلفة، تحددتها الحوافز التي أرغمت الكاتب على الخروج ثم التدوين..

تشتمل تلك التركيبة الرحلية على أدوات إجرائية وصفية، يعتمد عليها الرحالة لإظهار الموضوعية والالتزام بها، خصوصا «حينما يتعلق الأمر بسرد "رحلة" ذات مرجع واقعي»¹⁴، وقد ظهر ذلك جليا في تضمين الكتاب الذي قمنا بالاشتغال عليه على اقتباسات تاريخية وتسجيلات صوتية محولة، تصف المعاناة التي يتلقاها المجتمع يوميا نتيجة القوانين الإلزامية الطارئة، كما استحضرت تاريخ المعالم السياحية في منطقة تندوف على ألسنة شيوخها وأساتذتها، نتلمس ذلك في سؤال الرحالة عن تاريخ تندوف العريق وسبب تسمية هذه المنطقة بهذا الاسم¹⁵:

- أيها الشيخ الفاضل، هل لك أن تحدثنا عن تندوف تاريخيا؟
- الشيخ التندوفي: أولا أرحب بك عندنا في تندوف وبين أهلك؛ إن تندوف مدينة عريقة جدا سكنها عدة قبائل معروفة تفرعت منها عائلات مختلفة منها قبيلتي الرقيبات، وتجكانت، وهي مدينة تجارية بامتياز.

وعلى هذا الإيقاع يمضي الرحالة في اكتشاف ما تزخر به المنطقة من أحياء عتيقة ومساجد مزخرفة تنبئ عن حياة مختلفة وثقافات متعددة، تظهر في اللباس المختلف والكرم المعهود في سكان الجنوب، رغم القوانين الصارمة حول التجمعات السكانية، والتخوف الظاهر على وجوه المضيفين وأصحاب المنطقة: «حل الصباح وإذا بالهاتف معطل، والمضيف يلقاني على خجل، لقد كان مهموما هو الآخر يحاول التظاهر بالتبسط لكنني أدركت أنه منشغل مستعجل، وعلمت منه أن سيارته احتجرت (...) لم أخرج في ذلك اليوم ترقبا للأوضاع التي يمر بها سكان تندوف خلال الحجر المنزلي»¹⁶، فالرحلة التي بين أيدينا خطاب استثنائي، لتدوينها في ظروف بالغة الخطورة، حيث الصدمات تتوالى، لكنها صورت بصدق المعاناة التي عايشها الإنسان الجنوبي خلال الأزمة، واستطاعت رغم كل ذلك نقل المشاهد بأريحية نظرا لعدم وجود الاحتكاك، وبالتالي يسهل الأمر على الرحالة لالتقاط بعض الصور واكتشاف المنطقة عن قرب.

5. السياحة الداخلية في زمن الوباء بين الترغيب والترهيب:

يسعى الإنسان المبهوس بالرحلة والسفر إلى خوض المغامرات من أجل إشباع رغبته في اكتشاف المجهول من المناطق السياحية والتاريخية ورؤيتها عن كثب، فيتحدى كل العوائق المحيلة بينه وبين وصوله إلى بغيته، حتى وإن كان ذلك المعيق سببا في تدهور حالته الصحية والنفسية. هذا التحدي الذاتي الذي يوسم في نظر البعض بالمجازفة الخطيرة، يراه الرحالة فرصة لاكتشاف ذاته التي يدرك معناها أكثر بترك مكان إقامته وشد الرحال إلى المكان الهدف الذي يحدد نوعية الرحلة؛ لأن هذه الأخيرة «ليست مجرد سفر باتجاه التخوم، بل هي فعل وجود، ومعنى كونها فعل وجود أنها بحث عن المعنى أو توسيع لدائرة المعنى، وهي أيضا تعبير عن رغبة الكائن في الإفلات من شرط لم يختره، لكنه اختار أن ينازله، والرحالة مثله مثل عابر السبيل، إنما يختار الإقامة في السفر والترحال بحثا عن المغاير والفريد والعجيب، إنه يخوض تجربة السفر ثم يدونها»¹⁷، ويكون التركيز أثناء فعل التدوين على أهم الأحداث التي استوقفت الرحالة خلال مراحل سفره، ويأتي ذلك عن طريق الاستدكار الذي يصاحب عملية الكتابة.

ولأن رحلة الكاتب جرت في ظروف استثنائية لم يشهد العالم مثيلا لها في الآونة الأخيرة، أعتبرت في نظر الآخر مجازفة، لتمرّد الكاتب على القوانين المنصوص عليها في الأخبار الرسمية، وبالتالي أصبح الرحالة ذاتا مشكوكا في أمرها، يجب الحذر منها، وما تحمله من وباء، وهذا ما تؤكدته الشائعات التي انتشرت حول الرحالة الكاتب بعد وصوله إلى منطقة تندوف، وخاصة بعد وفاة أقرب شخصيات الكاتب إلى نفسه بعد أيام من سفره بتأثير من الوباء القاتل، ما أجبره على التفكير في العودة إلى بلاده في أسرع وقت قبل إغلاق المعابر والطرق نهائيا، فكان لزاما عليه تحمل مسؤولية قراره المتخذ في لحظة تسرع وعجلة: «كنا نسير إلى خارج المدينة حيث الحاجز الأمني الآخر الذي سألناه أن يساعدنا لكنهم رفضوا بل وتركنا بعضهم ننتظر مدة من الزمن ثم منعنا من البقاء لأوامر عليا لا تسمح لهم بإبقائنا قبالة الحاجز الأمني، وكان مرافقي واسمه بلمهل جد مرتبك وخائف ولكنني كنت مبتسما طول الوقت غير مبال وثقتي في الله أكبر أنه لن يخيبنا»¹⁸، وهذه مسلّمة مشتركة بين جميع الرحالة، الذين يلجؤون إلى الله طلبا للإغاثة والمساعدة في لحظات الضعف واليأس التي تصاحب كل مسافر ومتجول في أفضية مكانية لا ينتهي إليها، وفي ظروف استثنائية لا سبيل للخلاص منها إلا بالدعاء والرجاء.

وقد كانت تلك اللحظات وقودا نفسيا ألهم الرحالة الكاتب وأعانه على استجماع طاقته الإبداعية واللغوية لرسم خطوات الوباء المتناقلة على نفوس الجزائريين في شمال الدولة وجنوبها، دون أن يغفل التركيز على جمالية الوصف المقترن بالمشاهدة لأبرز المعالم السياحية والتاريخية في منطقة تندوف وما جاورها، كما حاول تقديم صورة للآخر الجنوبي، من خلال نقل ما شاهده من صور تخص حضارته وثقافته وتاريخه من منظور رحالة عابر «ثم من منظور راو يحول المشاهدات إلى قدرة تذكيرية ومشاهد غنية بخلفيات تبث اللامألوف والعجائبي، وأيضا عناصر الاختلاف والتلاقي، فتصبح الصورة محولة إلى نص لغوي "حاملة لآثار وعادات وسلوك"، وتمثيلات لغوية وذهنية للأنا والآخر»¹⁹، لأن الرحلة بحد ذاتها نص مذوت، يكتب التاريخ

من منظور الذات الكاتبة والمؤرخة، في بحثها الدائم عن الحقيقة والهوية، والتي تتجلى عبر السفر الذي يعدّ «جامعة تحفل بالدروس والعبر، وتحتشد بالعلم والمعرفة، وتشحذ العقل والوجدان، وتزيد في الفهم والإدراك، وتصل الشخصيّة بفضل قساوة التجربة وحرارة المواقف وهبة المغامرة وطلعة الجديد في كل شأن ومواجهة المفاجآت، وتحمل مشاق الغربة والسفر، والاطلاع على الطبائع المختلفة والاعتیاد على الغريب والتمرس بمتابعته»²⁰، هذا كله من أجل الإجابة عن أسئلة مهمة، يختبرها الإنسان بلمّاذا وكيف، لتكون الوقود النفسي لشد الرحال والبحث عن مواطن الاختلاف والتميز.

6. خاتمة:

تصل رحلة البحث في موضوع الدّراسة محطّتها الأخيرة، وفي ختامها نُسجّل مجموعةً من النّتائج نعرضها فيما يلي:

- لقد حاول النقد الحديث إعادة الحياة إلى أدب الرحلة، باعتباره جنسا عربيا بامتياز؛ وذلك من أجل إثبات الكفاءات السردية العربية ومدى قدرتها على التأقلم مع أجناس أدبية متاخمة تجمع بين السرد والوصفي والبعد العجائبي في سياق أدبي واحد.
- تعد "رحلة تندوف في زمن كورونا" خطوة جريئة في تاريخ الكتابة الرحلية، لتجسيدها مخاوف الإنسان في أزمنة المرض، فأحسن تصوير الأثر النفسي في دواخل الإنسان الجزائري، بما في ذلك رجال الأمن والمسافرين، واستطاعت تفعيل بث مباشر لمختلف التحركات والتجمعات السكانية، والاطلاع على سبل مقاومتها الفعالة للوباء، لأن الرحلة أو أدب الرحلة وثيقة أنثربولوجية رسمية لما جرى في التاريخ وما يجري من أحداث طارئة ومستجدة.
- لقد حاول الرحالة استجماع طاقته الإبداعية واللغوية لرسم خطوات الوباء المتثاقلة على نفوس الجزائريين في شمال الدولة وجنوبها، دون أن يغفل التركيز على جمالية الوصف المقترن بالمشاهدة لأبرز المعالم السياحية والتاريخية في منطقة تندوف وما جاورها، كما حاول تقديم صورة للآخر الجنوبي من خلال نقل ما شاهده من صور تخص حضارته وثقافته وتاريخه من منظور رحالة عابر، ثم من منظور كاتبٍ يقيد ما يراه في سجلات إثنوغرافية شارحة.
- وما نوصي به في نهاية بحثنا؛ ضرورة الاهتمام بأدب الرحلة العربي كجنس أدبي يستحق العناية والدراسة، وربط تلك النتائج المقدمة بالدراسات الأنثربولوجية الحديثة، وحتى الدراسات التي طالت جميع الأجناس الأدبية الأخرى، لاكتشاف جماليات التعالق والتهجين، كما توصي بمنح العناية اللازمة لأدب الأوبئة، وتحليل نماذجه وفق المناهج النفسية المعاصرة، لفهم المدونات كما ينبغي، ووضع الحلول الضرورية لتجاوز المحنة والخروج منها بأخف الأضرار.

الهوامش

سردية الوباء في الكتابة الرحلية المعاصرة: قراءة في كتاب "رحلة تندوف في زمن كورونا"

لعبد القادر مسكي / حليلة قاجوج، كمال بولعسل

- ¹ طيب بوقرط: "أدب الرحلة بين محوري التوقع والتوقع من منظور النقد الأدبي قراءة في الإشكالات والآفاق"، مجلة تاريخ العلوم، جامعة الجلفة، مج3، ع6، يناير 2017، ص169.
- ² شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، شركة الأمل للنشر والتوزيع، مصر، د.ط، 2002، ص58.
- ³ المرجع نفسه، ص280.
- ⁴ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص40.
- ⁵ عواطف بنت محمد يوسف النواب: كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، دار الملك عبد العزيز، الرياض، د.ط، 2008، ص21.
- ⁶ شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، 1987، ص5.
- ⁷ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، ط1، 2002، ص18.
- ⁸ عبد القادر مسكي: رحلة تندوف في زمن كورونا، دار خيال، الجزائر، د.ط، 2022، ص7.
- ⁹ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص86.
- ¹⁰ المصدر السابق، ص51.
- ¹¹ عبد القادر مسكي: رحلة تندوف في زمن كورونا، ص35.
- ¹² شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص137.
- ¹³ المرجع نفسه، ص217.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص274.
- ¹⁵ عبد القادر مسكي: رحلة تندوف في زمن كورونا، ص39.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص55.
- ¹⁷ لخضر حشلافي، جميلة روباش: "الآخر في الرحلات المغربية"، مجلة آفاق للعلوم، جامعة الجلفة، ج1، ع8، جوان 2017، ص10.
- ¹⁸ عبد القادر مسكي: رحلة تندوف في زمن كورونا، ص90.
- ¹⁹ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص271.
- ²⁰ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص21.

المصادر والمراجع

المؤلفات:

1. شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، شركة الأمل للنشر والتوزيع، مصر، د.ط، 2002.
2. عواطف بنت محمد يوسف النواب: كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، دار الملك عبد العزيز، الرياض، د.ط، 2008.
3. شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، 1987.
4. فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، ط1، 2002.
5. عبد القادر مسكي: رحلة تندوف في زمن كورونا، دار خيال، الجزائر، د.ط، 2022.

المقالات:

1. طيب بوقرط: "أدب الرحلة بين محوري التوقع والتوقع من منظور النقد الأدبي قراءة في الإشكالات والآفاق"، مجلة تاريخ العلوم، جامعة الجلفة، مج3، ع6، يناير 2017.
2. لخضر حشلافي، جميلة روباش: "الآخر في الرحلات المغربية"، مجلة آفاق للعلوم، جامعة الجلفة، ج1، ع8، جوان 2017.
3. نصيرة بحيري، نورية هاني: "أدب الرحلة سؤال الأدبية وإشكالية الانتماء"، مجلة الموروث، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، مج9، ع2، ديسمبر 2021.